

التداولية وأخلاق التواصل -قراءة تحليلية في مشروع هابرماس-

Pragmatics and Communication Ethics - Analytical Reading of the Habermas Project -

مختبر دراسات الفكر الإسلامي في الجزائر، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية/جامعة جيلالي ليايس/الجزائر.	فلسفة معاصرة	براني محمد محمد Berrani Mohamed berraniphilo22@gmail.com
مختبر دراسات الفكر الإسلامي في الجزائر، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية/ جامعة جيلالي ليايس/ الجزائر	فلسفة	د. بن طرات جلول Dr. Bentrat Djelloul djbentrat@gmail.com
DOI: 10.46 10.46315/1714-010-003-007		

الإرسال: 2020/06/22 القبول: 2020/09/07 النشر: 2021/06/16

ملخص:

يهدف البحث إلى إبراز دور وأهمية الفضاء العمومي في تحديد جميع العلاقات الاجتماعية وبنائها عند هابرماس، وكذا دور التداول والتواصل في تصحيح أنسجة العلاقات وبناء تواصلات سليمة وذلك من خلال العناية بالدرس التداولي الذي يحدد أسس الفعل الكلامي وبالتالي إعادة بناء جميع المفاهيم المتعلقة بالإنسان سواء في مجتمعه أو ككيان. وبالتالي صياغة أخلاق للمناقشة تطابق ما تسعى إليه العقلانية التواصلية في التأسيس لقصد الداوة، ومنه استحضار الروح الحدائرية في التواصل العقلي الموجه بالنقد والمحااجة وادعاءات الصلاحية من خلال استثمار مبادئ التداول، لكي يتحدد الفضاء العمومي في توجيه السلطة وصياغة القوانين وبناء دولة الحق. كلمات مفتاحية: الفضاء العمومي، التواصل، التداولية، أخلاق المناقشة، الديمقراطية التشاورية.

Abstract:

The research aims to highlight the role and importance of the public space in identifying and building all social relationships at Habermas, as well as the role of deliberation and communication in correcting the tissues of relationships and building sound communication, by caring for the deliberative lesson that defines the foundations of verbal action and thus rebuilding all concepts related to man, whether in his community or As an entity, and thus formulating ethics for discussion that matches what the rationalistic rationalism seeks in establishing for the purpose of idleness, and it evokes the modernist spirit in mental communication directed by criticism, argument and claims of validity by investing the principles of deliberation, so that the public space is determined in directing authority, drafting laws and building the state of truth.

Keywords : Public space ; Communicate ; pragmatique; ethics of discussion; Consultative Democracy.

* - الباحث المرسل: berraniphilo22@gmail.com

مقدمة:

لقد طرحت الفلسفة المعاصرة عدة إشكالات كان غرضها تدارك ما خلفته التقنية والعلم المعاصر، الذي أفضى إلى تفكك الإنسان وإعادة إنتاجه من جديد، وقد كان لأثر العلم والإعجاب به دور كبير في تفكك العالم وبشاعته، ليُحتكر (العلم) كسبيل للممارسات اللاإنسانية اتجه المجتمعات واحتكار منتجاتها وتوجيه أفكارها إيديولوجيا، من خلال طرح مسائل الدين والتقدم والرفاهية والحرية... بمنظور يعيق رؤية الإنسان العادي ويوجهها دوما نحو الانصياع لما ينتجه الإعلام والصورة كنماذج لصور البشر وحياتهم.

وقد ارتأى هابرماس أن يعيد ذات الإنسان المتحررة من كل القيود التي فرضتها التقنية من خلال نظريته في التواصل، وكان مكملا لما عرفت عليه مدرسة فرانكفورت بنزعها النقدية التي تدحض العقل الأداة الذي لا يعبر عن الإنسان بل يختزله كأداة.

واعتبر هابرماس مسألة التواصل مُلحة لإعادة بناء العلاقات الاجتماعية وإصلاح المشروع الحدائي الذي لم يكتمل من منظوره، وأسس لتداولية شاملة تستثمر ما خلفه الدرس اللساني التداولي لبناء فضاء يتناسب والسلطة، ويعيد ملكة النقد في توجيه السياسة، وقد حاول هابرماس أن يعطي ملامح واضحة لبناء علاقات تواصلية سليمة بداية من الكلام كفعل، وكان استغلاله لما أنتجته اللسانيات البراغماتية من نتائج، وبالخصوص أوستين (Austin) وسيرل (Searle) يؤكد جدية مشروعه التواصلية في إعادة اللحظة الحدائية بلغة منطقية رصينة تعزز البين ذاتية وتتجاوز الفردية، وارتأى هابرماس أن يضع اللغة على المحك واثقا في قدرتها على إعادة الربط بين الشتات الذي مزق المعاني الإنسانية في العصر الحديث، مع الصرامة التي تطبع الجوانب الإيتيقية الموجهة للكلام، نظرية معيارية يدعوا إلى تأسيسها والعمل بها الروح الإنسانية المتبقية من الحدائ السائلة. لذلك سنطرح الإشكال التالي:

كيف يمكن استثمار الدرس التداولي داخل المشروع التواصلية في إعادة بناء العلاقات الاجتماعية والمفاهيم الأساسية كالمواطنة والقانون؟ وإلى أي مدى يمكن أن يؤسس الحوار لديمقراطية تشاورية سليمة؟

التداولية (مفهومها وأسسها):

لقد استفادت التداولية مما خلفه العجز في فهم الكلام وأسسها على أنه فعل بعيد عن اللغة كنسق، مما شكل مجموعة من التراكمات العالقة التي عنيت بها التداولية لاحقا، فقد عنيت بالكلام كفعل له ما يحكمه على غرار أنه ممارسة للغة، هذا ما أدرج العديد من المؤثرات التي يتأثر بها، كالمجتمع، والسياق، وأهداف الكلام ووضعه... الخ.

تأخذ التداولية عدة معانٍ إصلاحية. "فهي تبحث في علاقات العلامات بمستعملها واستعمالها وأثارها" (الخوني م، 2014، 184). أي اللغة المتداولة أو فعل اللغة ولا يقصد هنا اللغة الرسمية كاللغة العربية وإنما اللغة الممارسة في الأوساط الاجتماعية، أي قيد الممارسة النفعية بتداول الملفوظات لأغراض معينة. "فيكون التداول جامعا بين جانبيين هما: التواصل والتفاعل، فبمقتضى التداول إذن، أن يكون القول موصولا بالفعل" (طه ا، ب س، 244). فقد كانت القضايا التي ترتبط بالكلام بعيدة عن علم اللغة ونعتت التداولية في بداية نشأتها بسلة مهملات، لما حملته من قضايا لم تستطع اللسانيات الإجابة عنها، بل اعتبرت قضايا يمكن دراستها لأنها تابعة لمتغيرات الواقع والممارسة.

والتداولية مصطلح قرّبه المفكر المغربي طه عبد الرحمن لمعناه الأجنبي *pragmatique* لأنه رأى أن مصطلح التداولية في تراث العرب يعبر عن المصطلح باللغة الأجنبية بل أبلغ منه، على حين أن "المصطلح العلمي لهذه النظرية "linguistic pragmatics"، وقد شاع بين الباحثين بلفظ "pragmatics" في الإنجليزية و"pragmatique" في الفرنسية" (عكاشة م، 2013، 9). فقد أصبحت علما وجد له فضاء خاصا داخل تراثنا وبين الشعراء والأدباء وأصبحت منهجا في قراءة سور القرآن لفهم دلائلها وتحليل معانيها، وقد استخدمها كمنهج لدراسة التراث واعتبر مجال التداول. "محل التواصل والتفاعل بين صانعي التراث" (طه ا، ب س، 244).

تجعل التداولية خصوصية للمتكلم بجعله محمدا داخل سياق خاص مما يفرد ألفاظه التي تحددت داخل هذا السياق كما تعنى بالمتلقي الذي هو أيضا متكلم بلغة تخصه (أو تخصهما) وبالتالي يتحدد الغرض التواصلية أيضا، كل هذه المؤثرات المختلفة في فعل اللغة فتحت مجالا خصبا للتداولية بأن تصبح علما يعنى باللغة المتداولة ويثبت عجز اللغويين منذ بدايات ظهوره فتصبح اللغة تمارس العبا _ كما رأى فيجينشتين _ ينبغي فهمها لتأثير فعل الكلام. لقد طورت التداولية أساليب الكلام ووضعت له قواعد عن طريق أوستين وسيرل وغرايس، حتى يصبح الكلام واضحا ومتحررا من مقاصد المتكلمين، وحاولت قدر الإمكان أن لا يقع الكلام داخل حيز الإكراه أو لغاية ما من خلال احترامها للمستمع حتى يتسنى له امتلاك آرائه والتعبير عنها دون أن يوجه، لذلك كان "مبتغى كل درس تداولي هو الانتفاضة على كل إكراه أو ضغط أو استبداد" (بلعقروز ع، 2009، 249).

التداولية والفضاء العمومي:

لقد تشكل الفضاء العمومي كمحاولة لإعادة بناء علاقة وثيقة بين السلطة والرأي العام وذلك من خلال بناء ديمقراطية تشاورية يشارك فيها كل الطبقات، وجاءت هذه الحاجة بعدما تم حصره في وظائف الدولة والتحكم فيه عن طريق الدعاية.

لم يستعمل مفهوم الفضاء العمومي إلا مع هابرماس في أطروحته التي نشرت سنة 1960 تحت عنوان: أركيولوجيا الدعاية باعتبارها مكونا بنيويا للمجتمع البرجوازي، حيث تطرق إلى انبثاق مفهوم الدعاية من الناحية التاريخية والنظرية" (علوش ن، 2016، 65). فقد تفتن هابرماس لأهمية الفضاء العمومي الذي سيكون أرضية خصبة لصنع ديمقراطية مثالية. وقد استلهم هذا من خلال قراءته لإمانويل كانط من خلال الإستعمال العمومي للعقل (العلوي ر، 2015، 142). لذلك أراد أن يتم نظريته في التواصل من خلال صنع ديمقراطية تداولية وفضاء عمومي يمارس فيه العقل حريته من خلال عقلنة الحوار وبناء أسس للكلام.

يمثل الفضاء العمومي تلك النقاشات الجادة التي تحدث في الفضاءات الخارجية لتناول قضايا المجتمع، ويقصد بالفضاء الخاص هي النقاشات التي تجري بين المثقفين، أو المتعمقين في المعرفة، أما مسألة العمومية هي تداول الأفكار والقضايا سواء في المقاهي، أو قاعات السينما، أو المسارح... الخ وتكمن أهميته في ربط السلطة بالمجتمع وبناء ديمقراطية مثالية تستند إلى القوانين التي تفرضها الجماعة. ولا يمكن أن يكون الفضاء العمومي مهينا مسبقا وإنما هو كيان رمزي متحرر من كل الخلفيات، يمثل ذلك التواصل البريء من كل تشوه أو نية لا تقصد التواصل.

إن ممارسة العمومية داخل المجتمع يحكمها ما هو متداول من أخبار، لذلك تلجأ إلى الخاصة من المجتمع لتستند إلى آرائها، والتي تستقي الأخبار عن السلطة من الدعاية، ويتم تداولها واثراء نقاشات حولها داخل الفضاء العمومي، لذلك يرجع الفضل في استقلالية وتقدم الفضاء العمومي إلى ازدهار الصحافة (علوش ن، 2016، 73). فتشكل الدعاية أمر مهم في الفضاء العمومي، لأن مشكلة فهم الحياة السياسية والعناية بها ونشر الوعي في المجتمع لم يتم على حسب هابرماس إلا بواسطة الدعاية.

"فهابرماس يلاحظ أن الصحافة قبل سنوات من الثورة الفرنسية قدمت صورة جامدة عن العلاقات بين السلطة والفضاء العمومي" (علوش ن، 2016، 73). أي أنها لم تؤدي الدور الحقيقي المتمثل في إنشاء صورة واضحة المعالم عن السلطة حتى يتسنى للرأي العام انتقادها، بل كانت صحافة في يد السلطة تنقل ما يوجه الرأي العام ولا يمكن أن تملك مطلقة التعبير، فالدعاية إذا وسيلة في يد الدولة الحديثة لتوجيه عقول الناس والتحكم فيها ومن جهة أخرى افراغها من أي محتوى نقدي" (العلوي ر، 2015، 145)، لأن النقد وحده الذي يحدد سلطة نزيهة، ويشكل فضاء سياسيا يعنى بأمور العامة ومشاغلها، وتظهر هذه النزعة عند هابرماس من خلفية مدرسة فرانكفورت التي تؤمن بأن النقد وحده يحقق تلك الجدلية التي تعلوا بالأفكار والقيم إلى أعلى مستوياتها. لأن مبدأ دعاية الإعلام استغله الرأي العام البرجوازي- الذي تشكل في القرنين 18 و19- لوضع حد للأسرار الخاصة بالدولة المطلقة (علوش ن، 2016، ص74). هذا سيعطي صورة غير

حقيقية عن السلطة وبالتالي لن يتم نقد الهفوات والتوجهات الخفية التي تحدث دون علم الرأي العام، وهذا سيجعل مسألة الدعاية مسألة جوهرية في إعادة تصويب الديمقراطية وبناء أسسها، ومن جهة أخرى بناء دعاية تتوافق مع المسار الديمقراطي الصحيح من خلال تحريرها صوب رؤية الشأن العام الذي هو أساس بنائها.

نشأت الصحافة في الوقت لذي اهتمت به الطبقة البرجوازية بالسياسة والسلطة وبدأ تدريجيا يخرج هذا الإهتمام إلى عامة الناس، مما سيشكل فضاء عاما يتم فيه مناقشة القضايا السياسية والفكرية والثقافية... الخ. يرى هابرماس أن الفضاء العمومي تحققت فيه القدرة على نقد السياسة في القرن التاسع عشر ولكنه سرعان ما فقدها بسبب العديد من العوامل منها الجانب الإقتصادي واستمالة الفرد والعائلة التي كانت تشكل فضاء خاصا داخل البيت ونزول الأدب الى عامة الناس وظهور ثقافة التبضع... والعديد من العوامل التي غيرت وجهة نظر المجتمع لتصبح المادية منهج تفكيره (الحوار المتمدن، خالد مخشان، 2014/06/10). ما جعل الدعاية أيضا تتأثر بالجانب المادي وتسعى للسيطرة على الرأي العام وتقويض الوعي وملكة النقد، بدل أن تتيح له الحرية في التفكير، وأصبح الإعلام_ حتى عصرنا_ أداة في يد السلطة ومحركا لها أيضا.

إن محاولة بناء فضاء عام متحرر من كل القيود ينبغي أن يأخذ كل التدابير التي تقيه من أن يصل بأرائه إلى توجه أريد له مسبقا، فالعمومية لا تقصد التحليل في فهم الآراء لذا ينبغي الإحتراس من أن يصل الخبر مشوها، كما أن المجموعات التي يتم من خلالها مناقشة الآراء المتعلقة بالسلطة قد لا تحترم مسافة النقاش وأسسها، لذلك كانت مسألة أخلقة الإعلام من خلال فهم جوهره الرابط بين السلطة وبين تشكيل رأي متحرر من خلال نقل المعلومة من دون أن أي توجه، بل ينبغي نقد مصدرها وتحليل وجهة نظره لكي لا تصبح يدا للسلطة.

التداولية وأخلاق المناقشة:

أراد هابرماس أن يتجاوز العقلانية الأداة التي اختزلت الإنسان سلوكا ومعنى داخل النفع وتجاوزت جوانب الإنسان التي تحقق إنسانيته ويُصلح بهذا ما خلفته الحداثة الكلاسيكية، والتأسيس للعقلية التواصلية من خلال إصلاح لغة تلائم فهمه وينجلي من خلالها كل غموض، فلا ضير إن كانت هذه اللغة نفعية تتوجه مقاصدها بشفافية تامة لتحدد بهذا ألفاظها ولا تلتبس مع سياقات نطقها. فالتواصل الفعال يحتاج لغة فعالة ليفيد البشرية بفهم جوانب الكلام والمتكلم وفضاءه ومقاصده (مصدق ح، 2005، 142).

"فيكون تبعا لهذا أن أخلاقية التواصل ليست مذهبا وإطارا قيما محدد المضمون، إنما هي منهج ترنسندنتالي، بمعنى مجموعة من الشروط يوجه احترامها نحو تحقيق الإجماع أو على الأقل تحقيق اتفاق مرضي بين الأطراف المعنية، وهي بمثابة مسلمات في كل نظرية تواصلية" (بلعقروز

ع، 2008، 100). وبهذا فإن أخلاق التواصل هي الجوانب المعيارية التي ينبغي احترامها في أي حوار، حتى يتم تداول الملفوظات داخل فضاء المسؤولية التي تضع المتكلم يوضح أفكاره ويلتزم بادعاءات الصلاحية.

إن الأخلاق كما عرفت منذ زمان اليونان إلى ما قبلهم دائما تخص ذلك الإنسان المتحضر، لذلك فكلما حضرت حظر الإلتزام، "وكان مجال اهتمامها (الإتيقا) هو الجهد النظري المبذول لبلورة المبادئ التي تنظم علاقاتنا مع الآخرين، في الوقت الذي تحتفظ فيه الأخلاق بمهمتها التاريخية البدئية (البدائية) وهي وضع المبادئ موضع التطبيق والممارسة" (هابرماس ي، 2010، 07). هذا يعني أن الإتيقا نظرية والأخلاق تطبيقية فهي معايير تحاول أن تعطي رؤية مستقبلية لصياغة مستقبل آمن للبشرية تحكمه وتؤسسه رؤيتها للحاضر، وإذا كانت الأخلاق تهتم بالسلوك البشري فإن قضايا الإتيقا ما يطرأ من تغيرات على المجتمعات.

فإتيقا المناقشة "ليست متناقضة مع الأخلاق ولكنها أيضا ليست متولدة عنها فهي تستند إلى مبدأ الحاجة كنقطة انطلاق أولانية لكل ما يمكن أن تفضي إليه" (مهيبيل ع، 2006، 17). لذلك هي أخلاق عقلانية تهدف لصياغة تواصل ناجح يكون كل فرد له القدرة على التكلم والمشاركة فيه مسؤولا على انجاحه والإلتزام بقواعده الاخلاقية وتكمن علاقتة الإتيقا بالتواصل في أنها لازمة عنها "مادامت رسائل التواصل بين المرسل والمتلقي رسائل غير بريئة، فهو، وبمقدار ماهو أداة للتفاهم والتحاور قد يكون، وبالمقدار ذاته، أداة للصراع والخصام، ومجتمعات اليوم تقدم لنا أمثلة حية على ذلك" (هابرماس ي، 2010، 9). فالإتيقا هنا ضرورية لكي يلتزم المتحدثون بمسؤولية كلامهم ولا سبيل لصنع هذه النية سوى بمعايير إتيقية تهيء مقاصد التواصل على أنه تواصل يتجه نحو التفاهم، وتتيح حضور مبادئ التداول لكي تتحقق شروط الكلام المثالي.

"وتتمثل وظيفة إتيقا الحوار في اختبار حوارّي يتفحص المعايير" (الخوني م، 2014، 200). وهذا الإختبار هو الذي يحدد كفاءة المتحاورين ومدى التزامهم بمصداقية أقوالهم. فتداول القضايا والأفكار وتحري الصدق مكنت التداولية من ربط الكلام بالفعل لمعرفة مدى صحته وصدقه، فكانت العلاقة وطيدة بين التداولية وتحري الصدق والمصداقية. أما شروطها لتأسيس تواصل سليم: (مصدق ح، 2005، 131).

1- الصدق: عبارات المتكلم صادقة وغير مزيفة.

2- يجب على المتكلم أن لا يكون مقلدا في حديثه ولا ثرثارا فيحشوا ويطنب، بل محكم التعبير عن نواياه ومقاصده.

3- الصلاحية المعيارية: يجب أن يكون استخدام العبارات والكلمات متطابقا ولا يخرج عن السياق المتعارف عليه في لغة المجتمع الذي ينتهي إليه المتكلم، وقد يضاف إلى هذا المستوى مستوى رابع: المعقولية.

ويحاول هابرماس من خلال هذه الشروط التحكم في الكلام ويجعل معيارا داخل الذات لتتحرى الصدق داخلها ثم تحدد الكلام تحديدا لفظيا، لأن لا يتم الإطناب فتهرب المعاني أو يقلل فلا تتضح، والتدقيق في اختيار الألفاظ يحدد المقاصد وهو ما تنزع إليه التداولية، كما تأخذ بعين الإعتبار سياق الحديث في جماعة المتكلم لأنه مؤثر أساسي في تداول الألفاظ، والجانب العقلاني في الحديث يربط اللغة بالعقل ويحدد معاني الجمل ومدى منطقيتها وصحتها ومدى ارتباطها بمعاني العقل، لذلك هو يتجاوز كل مرجعية ذاتية. فالمشاركين في عملية نقاش لا يمكنهم إدراك القاسم المشترك (الإجماع) إلا إذا تجاوز كل واحد منهم النظرة المركزة على الذات (هابرماس ي، 2010، 23). ويعمل الإجماع على صياغة جميع الأفكار التي يمكن أن يتبناها الفرد، حتى معتقداته وتوجهاته، فتداوليات المناقشة تمحو تلك الرابطة بينه وبين ذاته، التي يرثها الفرد داخل مجتمعه ليقدمها ولا يتخلى أن أفكاره، ويصبح بذلك يفتح على احتمال أنه لا يصيب في كل الأحيان حتى يتيقن من ذلك. فالمناقشة تلي الشرطين حصرا: (هابرماس ي، 2010، 26)

الشرط الأول: كل مشارك فرد حر فيما يقوم به مادام يحوز على السلطة الإبتيمية في صيغة المتكلم، والتي تسمح له باتخاذ المواقف...

الشرط الثاني: هذه السلطة الإبتيمية تتم ممارستها بغرض البحث عن اتفاق عقلائي مدروس، ومن ثمة العمل على اختبار الحلول التي تكون مقبولة عقليا، عقليا فقط، من قبل كل الأشخاص المنضوين والمعنيين هنا.

فكل فرد له الحرية في ممارسة الكلام ولكنه لا ينبغي أن يتجاوز الشرط الثاني الذي يجعل هذه السلطة تبحث عن التفاهم واختيار ما هو عقلائي، ويندرج داخل هذين الشرطين فهم مقاصد الكلام والتكلم بوضوح أيضا إذ لا مفر من اللغة في صنع هذا التواصل السليم، ويبقى الجانب الأخلاقي معززا لفعل الكلام حتى يصبح سلسا على أساس أن نيته الإجماع وليس التظاهر والتلاعب باللغة، فهابرماس عزز مبادئ الكلام الملفوظ بإتيقا يمكنها أن تبرر أن الكلام وجد للتفاهم وأن الحقيقة في الإجماع.

التداولية وبناء الفضاء العمومي:

لقد تبني هابرماس التداولية الصورية (la pragmatique formelle) التي تهتم بجميع شروط الخطاب (بكاوي م، 2017، 276). والتي يحاول من خلالها أن يصنع داخل المجال العام حالة مثالية للكلام والحجاج، وأن يؤسس لسبل الحوار السليم لبناء فضاء عام متماسك يجابه قوة السلطة

ويوجهها ولا يتأثر بالدعاية بل وينتقدها. من خلال تداول الأفكار بهدوء وروية بحجج مبنية على المنطق واحترام أخلاق المناقشة ليكشف عن قدرة العقل التي تجعل الثقافات المختلفة تتوحد لأجل الحقيقة (المحمداوي ع، 2015، 241). ويشكل هذا مبدئياً رؤية منتظمة_ لازمة_ لهيكلية أي مجتمع تفككت قيمه واختلت أطره وأصبح لا يثق في السياسة، وانطبع عليه الأنانية والتواصل المشوه، فلا مفر من العقل كسبيل لمسيرة العمليات التي تصلحه، والإنتقال من التفكير الذاتي الأناني إلى روح الجماعة التي تبني جميع القيم، ومن جهة أخرى تحمل هذه الرؤية مرجعية حدثية من خلال تأثر هابرماس بالرؤية الحدثية معترفاً بالذاتية التي حاول أن يصلحها من خلال التداولية الشاملة.

تهدف التداولية إلى فهم مقاصد الكلام وذلك من خلال تحليل القواعد المتحكمة فيه، حتى تظهر المقاصد جلية داخل أي حوار ، مما يعيد تأسيس العلاقات من خلال التأسيس للمفاهيم العامة داخله، كالحق، والديمقراطية... الخ. "ونظراً للأهمية المركزية للغة راهنت المقاربة التداولية على اللغة باعتبارها الوسيط الرمزي للنفاد إلى عمق ما يعاينه المجتمع من عراقيل مستنبطة في لاشعور الجمعي والمسببة لكافة أشكال الكبت والضغط والإكراه والعنف ونفي الآخر" (بلعقروز ع، 2009، 255). فعودة الدرس اللغوي_ التداولي_ مثلت ضرورة لبناء وتحديد أطر الحوار التي تعرفها البشرية ولكن لا تدرك التعامل بها، فالتداولية هي الشكل الممنهج للكلام الذي يتوخى تلاعب اللغة، وليست نمطاً جديداً للتواصل بقدر ما هي ربط للغة بالعقل لفهم مقاصدها، لذلك ارتأى هابرماس أن يختزل هذا الدرس في بناء العلاقات داخل الفضاء العمومي. "ويرجع اهتمام هابرماس بالتداوليات نظراً للإرتباط القوي الذي تمنحه هذه الأخيرة بين الكلام والفعل أو النظري والتطبيقي" (بكاوي م، 2017، 277). فبناء علاقات اجتماعية بعيداً عن كل ما يتيح حضور ممارسات التشويه والتلاعب باللغة لا يؤسس إلا بربط الكلام بالفعل، لكي يتسنى بناء لغة تمكن العالم المعيش من تخفيف التوتر اتجاه التحري عن تلك العلاقة الفاصلة بين الكلام والقصد منه، والتي غيبت لفترة طويلة في تاريخ البشرية،

الديمقراطية المداواتية :

يؤمن هابرماس بأن بناء العلاقات الاجتماعية وإعادة تصحيحها متعلقة بمدى نجاح الحوار داخل الأوساط الاجتماعية "بحيث يلعب الحوار فيها دوراً مركزياً تجنباً للصراعات الاجتماعية التي تهدم المجتمع" (بوميرك، 2010، 119) وذلك من خلال الحوار المثالي الذي يصحح ذلك الفهم المشوه لمجموع المفاهيم المتعلقة بالمجتمع وأطره.

لذلك فالديمقراطية المداواتية هي التي تبني على الحوار والتفاهم وتأسس مبادئها بين النظامين الليبرالي والجمهوري، فالتصور الليبرالي يتمتع فيه المواطن بكل حقوقه الفردية، كما يمكنه أن

يدافع عنها عن طريق تشكيل إرادة سياسية (جميلة ح، 2016، 284). أي أنه يمجّد الفرد على حساب الجماعة وتتسع فيه الحريات التي تتأثر بالاقتصاد.

بينما وضع المواطن في التصور الجمهوري لا يمكن للمواطن أن يطالب بالحريات السلبية (الفردية) إلا داخل الجماعة مما يؤسس لمسار التواصل في صنع السياسة (جميلة ح، 2016، ص 284) من خلال الأخذ بمصير الجماعة من خلال مبدأ المساواة، ولكن هابرماس يضع مبادئ الديمقراطية وسطا بين النظامين، فانتهت الليبرالية في كونها تعزز الفرد وتشل الجماعة والجمهوريين في كونهم يهتمون بالجماعة ولكن تبقى تابعة للسلطة وتفتقد لفضاء عمومي ناقد للسياسة وبأقل حرية. وفي المقابل تعتمد السياسة المداولاتية المبنية على البرلمان والفضاء العمومي السياسي (جميلة ح، 2016، 289). مما يأسس للحوار داخل الفضاءات المختلفة التي ستقرر كل ما يخص السلطة.

"تستند الديمقراطية المداولاتية أساسا إلى شروط التواصل حيث يمكن افتراض أن المسار السياسي تكون له حظوظ توليد نتائج معقولة لأنه يتم على أوسع مدى على نمط تداولي ولقد شكل هذا المفهوم التداولي والإجرائي للسياسة المداولاتية للنواة المعيارية للنظرية الديمقراطية مما يجعلها مختلفة عن الديمقراطيتين الليبرالية والجمهورية" (جميلة ح، 2016، 287). فهي تضع أسسها وسطا بين الفردي والجماعي من خلال أنها لا تؤسس إلا للحوار الذي يصنع الديمقراطية ويؤسس للحق والمواطنة، من خلال فتح مداولات واسعة يتم فيها احترام الأسس المعيارية للنقاش والمحاورة، ويكون الحوار هادفا إلى فتح آفاق مستقبلية للمجتمع، ودون تقييده للسلطة فهابرماس يدرك أن السلطة الإدارية لها دور في توجيه الحوارات وتشكيلها خاصة عن طريق الدعاية، ولكن في دولة الحق التي يتم فيها الموازنة بين السلطة والفضاءات الواسعة وتكون فيها الصحافة متحررة وناقدة للسلطة ومنه سيؤسس "شبكة تواصلية تهتم على وجه الخصوص بالتعرف على المشاكل التي تهم المجتمع ومعالجتها" (جميلة ح، 2016، 290).

يرى هابرماس أن الديمقراطية التشاورية تبنى بالتشاور والحوار وتزج إلى الحق العام بدل الخاص، كما أنها تحتاج إلى إرادة سياسية وبالتالي لا يمكن إلا للقانون من أن يسير هذه الشرعية النابعة من الفضاء العمومي المتحرر كبداية لمسار للديمقراطية. فمن سماتها أنها تجمع مستقل وحر يشارك فيه أعضاء المجتمع كما أنها تحفظ كل خصوصيات الأفراد، وينظر من خلالها إلى أن النقاش والتداول مصدر كل شرعية ويقام فيها الحوار مستقلا عن كل ضغط أو إيديولوجيا (المحمداوي ع، 2015، ص 329، 330). وبهذا يتم إعادة بناء العديد من المفاهيم داخل الفضاء العمومي بما فيها المواطنة. الذي ارتبط على حسب هابرماس بالانتماء والقومية (المحمداوي ع، 2015، 337). فالمواطنة عند هابرماس تحكمها الدولة ومدى شرعية قوانينها ولا

يمكن أن تكون سلبية يعززها التاريخ وتستغلها السلطة، وبالتالي فالمواطنة في المشروع الهابرماسي يصنعها القانون النابع من حرية الأفراد فتأتي المواطنة مرادفة للشعور بالحرية. وداخل الحوار العقلاني لا ينبغي لأي إيديولوجية الحضور بما في ذلك الدين، فالمحاجة تستبعد التصلب والإيمان بالمعتقدات دون حجج منطقية عقلية، فقد استبعد هابرماس مطولا العقائد من الفضاء العمومي قبل أن يدرك أنها حاضرة داخل المجتمعات الغربية والشرقية كما أنها تتصارع مع العلمانية في عديد المجتمعات.

وبما أن الفضاء العمومي لا ينبغي أن يتجاوز الأقليات داخل المجتمعات ويبني مبادئه على منطق الأغلبية، أعاد هابرماس الحوار الديني والحوار الديني العلماني في ما اصطلح عليه بالمجتمع ما بعد علماني الذي يفتح الحوار بين الأفراد دون أن يتخلى أي أحد أن معتقداته سواء كانت دينية أو علمانية "وقد بذل هابرماس من خلال معرفته العميقة التي تفتح أفقها الواسع على مكانة الدين خاصة الجدل السياسي العام، جهدا ملحوظا في توضيح أبعاد التسامح في إطار التعددية الثقافية" (المحمداوي ع، 2015، 360).

"ويلتمس مجتمع ما بعد العلماني استمرارية الجماعات الدينية في محيط يستمر بعلمنة نفسه، والدور الحضاري الذي يؤديه التشارك والفكر الجمعي الموجه والمتنور بالديمقراطية، وفي هذا الجدل كله يظهر المجتمع ما بعد العلماني وكأنه طريق ثالث بين العلم والدين" (المحمداوي ع، 2015، 364). أي بين العلمانية التي تؤمن بمبادئ العلم ونتائجه وتحاول من خلاله التضييق على المتدينين بالحجج العلمية والدين الذي هو معتقد يؤثر كذلك في الحوار، ويعيد هابرماس الثقة في اللغة لتفكيك الحوار ومأسسته "فالرابط اللغوي هو العنصر الجديد الذي فرضته متطلبات الحداثة، هذا الرابط أصبح له دور أساسي في تحقيق اندماج المجتمع، انطلاقا من الممارسة اليومية للتواصل..." (البلواني ع، 2014، 190).

"يتجسد العالم المعيش من خلال الممارسة اليومية للتواصل بحيث أن جميع مكوناته تخضع لعملية تأسيس مستمر ويتعلق الأمر هنا ب "التقاليد الثقافية، الأنظمة المؤسساتية، والهويات" (البلواني ع، 2014، 192). وتخضع هذه المكونات للتأسيس المستمر أي أنها غير محددة مسبقا، بل يحددها النقاش والحوار داخل الفضاء العمومي، ولا يمكن أن تكون ثابتة بل قابلة للتجديد، وتأتي هذه العمليات من خلال فهم أن التواصل مطلب ضروري وذلك من خلال فهم أسسه التي تبني حوارا مثاليا للكلام ولادعاءات الصلاحية، وبما أن الحوار يحتاج شيئا من الثقافة "يدافع هابرماس عن حق المواطن في امتلاك مستوى من الثقافة القانونية في دولة الحق والقانون الديمقراطية كي تمكن من تعديل القوانين" (الأشهب م، 2013، 200). حتى لا يتم استغلال آرائها أو ثقافتها من طرف جماعات محددة وتوجهات ظالمة.

قراءة نقدية:

- بالرغم من أن هابرماس حاول إعادة بناء فضاء عمومي متماسك وقد مست هذه المحاولة إعادة بناء تواصل حقيقي غير مشوه، واعتبر التواصل الحل الأمثل لبناء العلاقات الاجتماعية التي تمؤسس للفضاء العمومي، ولكنه مكن السلطة من تحديد هذا الفضاء عن طريق إرادتها السياسية، إذ لا يمكن أن يتم هذا دون ديمقراطية قد قطعت أشواطاً في حقوق الإنسان وممارسة الحريات واحترام الرأي العام، وكذا تحرير الصحافة والإعلام لتوعية وتنوير الفضاء العام.

- ينتقد الكثير من الدارسين والمفكرين "الحالة المثلى للكلام" عند هابرماس على أساس أنها لا يمكن أن تتحقق في الواقع، ولكن الكلام في حقيقته ممارسة لأفكار وتداولها، ويختلف من مجموعة إلى أخرى على حسب قدراتها العقلية واللغوية ومدى تحقق احترام الرأي، وبالتالي فشروط الكلام المثالية يقتضيها أي حوار ليصبح له معنى وهدف، ويمكن لأي محاور تحققت فيه شروط الكلام أن ينتبه لها بشرط أن يطلع عليها. وبالتالي هي ليست مثالية بعيدة عن الواقع وإنما هي الكلام المستند إلى المحاجة والمنطق والحقيقة.

- بالرغم من أننا نجد هابرماس يسعى إلى تقديم نظرية أخلاقيات التواصل غير أنه لا يقدم أنموذجاً جاهزاً من أجل "حياة سعيدة" لأنها أصلاً غير موجودة بل يكتفي برسم المبادئ الصورية لإجراءات البرهنة السليمة (مصدق ح، 2005، 157). وبالتالي هابرماس لا يعطي أنموذجاً جاهزاً لصنع مداولات مصغرة أو مداولات ديمقراطية سياسية إنما يفرض أساساً يحتاجها الكلام لكي يكون سليماً.

- "ينطلق هابرماس في تحليله لمفهوم السيادة الشعبية من نموذج الفلسفة السياسية الحديثة لجون جاك روسو، فالنظرية التعاقدية تقول إن السلطة السياسية تقوم على أساس ميثاق أو عقد سياسي بين الحاكم والمحكومين" (الأشهب م، 2013، 193). ولكن الديمقراطية التشاركية تبني المجتمع أفقياً ثم تنتقل إلى الدولة، وتعتبر النقاش الذي يساهم فيه كل أفراد المجتمع أساساً لبناء الدولة، فدولة الحق والقانون تكون الديمقراطية فيها روح المجتمع.

خاتمة:

إن فلسفة هابرماس اللغوية أعادت حضور الدرس اللغوي الذي أسس لها سابقاً على يد السفسطائية ومازال يفتح لها أنفاس الحياة في ظل حضور الإجابات القاطعة في العلم، وتمكّن التقنية من توسيع مفهوم الدقة داخل البحث، وبالرغم من أن العلم المعاصر انهزم أمام كيان الإنسان الذي يفتح دائماً الحوار والاختلاف، إلا أنه لا يزال يُحكم السيطرة بتكيفه أحياناً وتملّصه أحياناً أخرى مغطاً بالزعة البراغماتية، هذا الذي يدعو إلى إعادة تكييف الفكر وتثبيتته لصدّ هذا التقدم الجامح.

لذلك يمكننا استخلاص النقاط التالية:

- يتيح الفضاء العمومي المؤسس عقلياً الحوار والتشاور والنقد وكل القدرات الإنسانية التي تميز الإنسان في كل حضارة لصنع ماهيته ووجوده في جماعة كما أن ربط الحوار بالأخلاق يعطي للحوار أسباب العقلانية واهتمام هابرماس بأخلاق النقاش يؤكد ضرورة حضور هذا الدرس ضمن أي نقاش يربط من خلاله الإنسان القول بالفعل.

- تتيح التداولية تواملا فعلا وسليما، بعد أن أنتجت أوليات وأسس الحوار التي يمكنها أن تتحكم فيه كما تتجنب ما يعيقه ويزيحه عن ماهيته وسبل تحقيقه، وهي الحجاج وتحري الصدق والمصادقية.
- يمكن للدرس التداولي أن يعيد مؤسسة العلوم الإنسانية بما أنه يحضر داخلها ويربط بينها، كما أن عنايته بالكلام والتفاعل يجعله درسا فنيا لذلك كانت العناية به عناية بمقاصد المتكلمين في كل أحوالهم.

المصادر والمراجع:

Books = كتب

- 1- الخوني مصطفى، (2014)، المجتمع والعقل التواصلي بحث في الفلسفة الاجتماعية لمدرسة فرانكفورت، تونس، الدار العربية للكتاب.
- 2- المحمداوي علي عبود، (2015) الإشكالية السياسية للحدث من فلسفة الذات إلى فلسفة التواصل، (الطبعة الأولى)، تونس، كلمة للنشر والتوزيع.
- 3- حنفي جميلة، (2016)، يورغن هابرماس من الحدث إلى المعقولية التواصلية، الجزائر، منشورات الجمعية الجزائرية للدراسات الفلسفية.
- 4- بومنير كمال، (2010)، النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت من ماكس هوركهايمر إلى أكسل هونيث، (الطبعة الأولى)، الجزائر، منشورات الاختلاف.
- 5- جاك ماري فيري، (2006)، فلسفة التواصل، ترجمة عمر مهيبل، (الطبعة الأولى)، الجزائر، منشورات الاختلاف.
- 6- مجموعة مؤلفين، (2013)، فلسفة اللغة قراءة المنعطفات والتحيات الكبرى، (الطبعة الأولى)، الجزائر، ابن النديم للنشر والتوزيع.
- 7- عكاشة محمود، (2013)، النظرية البراغماتية اللسانية (التداولية) دراسة في المفاهيم والنشأة والمبادئ، القاهرة، مكتبة الآداب .
- 8- علوش نور الدين، (2016)، فلسفة السلطة السياسية عند هابرماس، (الطبعة الأولى)، لبنان، دار الرافدين.
- 9- هابرماس يورغن، (2010)، إتيقا المناقشة ومسألة الحقيقة، ترجمة عمر مهيبل، (الطبعة الأولى)، الجزائر، منشورات الاختلاف.

Journal & Magazine Articles

- 1- العلوي، رشيد. (2015)، الفضاء العمومي من هابرماس إلى نانسي فريزر، مجلة دفاتر الدكتوراه، (02).
- 2- مخشان خالد، (2014/06/10)، الفضاء العمومي عند هابرماس، (4478) تم الاسترجاع من الرابط: <http://www.ahewar.org/search/Dsearch.asp?nr=4478>